الفصل الأول
مستقبل الوحي

تعيش الحيوانات يوما بعد يوم على ما تقدمه الحياة لهم. ولا يبدو أنها تنظر إلى ماضيها أو تحلم بمستقبل تتطلع إليه. أما الإنسان.. فهو مستثنى من ذلك في المملكة الحيوانية، إذ من النادر أن يقنع بحاضره، فهو إما أن يعيش هائما في ذكريات الماضي، أو يمني نفسه بأيام أفضل في رحم المستقبل، وغالبا ما تتعلق هذه الآمال بمستقبله الاقتصادي أو السياسي أو الديني. وسوف نتناول في الصفحات القادمة المستقبل الديني للإنسان.

إن الأديان الرئيسية جميعها تَعِد بمجيء مبعوث سماوي، يُشكل قدومه مرحلة جديدة من الأمل للإنسانية، إذ أنه سوف يُوَحّد البشرية جمعاء ويجمع كلمتهم تحت لواء سماوي واحد. وهذا الأمل بمنزلة الأرض الموعودة التي يتطلع الجميع إلى الوصول إليها والاستحواذ عليها يوما ما. إنها اليوتوبيا.. المدينة الفاضلة.. ملتقى آمال جميع الأديان، غير أنها بكل أسف قد صارت أيضا مفترق الطرق الذي تتباعد عنده السبل والدروب، وتختلف المقاصد والاتجاهات. إن الأحلام فقط هي التي يشترك فيها الجميع، ولكنهم لا يشتركون في كيفية تحقُّقها. فأتباع الأديان جميعها متفقون في إيمانهم بأن مبعوثا سماويا سوف يأتي لهداية البشرية وإنقاذها من الهلاك والدمار، ولكن حين يتعلق الأمر بشخصية ذلك المنتظر، نرى أنهم يختلفون تماما بعضهم مع البعض. فهل سيكون هو الرب كرشنا أم يسوع المسيح؟ هل سيكون هو زرادشت أم بوذا؟ أو لعله كونفوشيوس أو لاو-تزو؟ فأتباع كل دين من الأديان ينتظرون شخصا مختلفا، له اسم مختلف، وله لقب مختلف، وتتوقع كل فئة منهم أن ينتمي هذا المبعوث إلى دينهم على وجه الخصوص. وهنا يرى المرء أن أبواب الأمل التي كانت مفتوحة لمجيء المنقذ المخلّص قد بدأت توصد مرة أخرى. وهي تبدو موصدة من

وجهـــة نظر أولئك الذين يعتبرون أن كل الأديان الأخرى هي أديان زائفة باســـتثناء دينهم هم، وعلى هذا يكون الباب الوحيد المفتوح هو بابهم هم، بيـــنما نفس هذا الباب يرى الآخرون أنه موصد أيضا. فكل فئة ممن كان يـــتغنى بأهازيج قدوم المنقذ العالمي.. راحت تغني على ليلاها عندما يتعلق الأمـــر بشخصـــية ذلـــك المنتظر، فإما أن يحقق لهم ما تخيلوه في توقعاتهم وأحلامهـــم.. أو إنهـــم لن يقبلوا أحدا على الإطلاق. وا أسفاه! إن هذا الموقف الأخير هو الذي اختاروه لأنفسهم، فلماذا يعبأ الله تعالى بأهوائهم إن كـــانوا هـــم لا يعبـــئون بإرادته ومشيئته. فليقيموا هم منقذهم الذي يتخيّلونه من خواء آمالهم وتصوراتهم اللاعقلانية.

إنه من المثير حقا أن نشاهد هذا الجدال الصاخب يدور على النطاق العـــالمي. وبعـــد أن هـــدأ غبار عواصف الدعوات والدعوات المضادة.. وسكن، فإن الاتفاق الوحيد الذي استقر عليه أنصار كل دين هو استمرار الاختلاف بشكل أقوى وأشد. فمن المحتم لكل فئة أن يكون المجدد المنتظر مـــنهم ولـــيس من غيرهم، وإلا فلن يقبلوه. إن كلامهم عبث، وآمالهم أوهام، ولا مكان للمُخلِّص الذي يريدونه سوى في أحلامهم.

هـــل يمكن لهذا المنتظر أن يحقق آمال جميع الأديان أم أنه سوف يحقق آمال أحدها فقط؟ وإلى أي دين منها سوف ينتمي في واقع الأمر، وأية أمان ومطامح سوف يحقق.. بينما يصرخ أتباع كل دين متعلقين بأهداب الأمل: *حقق لنا نحن الآمال.. حقق لنا نحن الآمال.. حقق لنا نحن الآمال!* والسؤال الذي يطرح نفسه في النهاية هو هل الشخص الموعود هو شخص واحد؟ أم هو عدة أشخاص يأتون في نفس الوقت؟ إن الله تعالى مُنَزَّه عن التناقض حتى يرسل عدة أشخاص يناقض بعضهم بعضا، فهو إما أن يرسل شخصا واحدا برسالة واحدة، أو لا يرسل أحدا على الإطلاق. فما الذي سيحدث للفئات المختلفة المتناحرة من الأديان المتعددة في ذلك الحين، فكل منها تؤمن بأمور متغايرة تتناقض مع ما تؤمن به الأخرى؟ وفيما يلي سننظر بعين الاهتمام إلى

هذه التناقضات التي تتميز بها تلك الفئات.

إن الأسلوب الذي يتصور الجميع أن تتحقق به أحلامهم هو أمر مستحيل الحدوث. خذ مثلا حالة اليهود الذين كانوا منذ زمن سحيق يتطلعون لمجيء المسيح، وقد ظلوا ألوفا من السنين يضربون رؤوسهم بحائط المبكى، ولا يزالون، يتضرّعون لكي يسرع المسيح بمجيئه، ولم يدركوا أبدا أنه قد جاء ورحل ولكن ليس بالأسلوب الذي كانوا يتوقعونه، ولا بالشكل والمظهر الذي تخيّلوه لمجيئه وحدّدوه. وعلى هذا فإن الباب الذي أبقوه مفتوحا قد أُغلق عمليا، بل وأوصد بالمزلاج. فما أقسى شعور اليأس ألا يأتي الضيف الذي طال انتظاره بشوق وشغف، رغم أن المرء لا يرى أي مانع ولا حائل يحول دون مقدمه. وفي الواقع.. إن جميع هؤلاء الذين ينتظرون مقدم الضيف السماوي هم أنفسهم المسؤولون عن وضع عقبات في طريقه لا يمكن اجتيازها، ولكنهم لسبب أو لآخر لا يدركون ما يفعلون. ولو أنهم أدركوا أن توقعاتهم مستحيلة التحقق، لأمكن لهم، على الأقل، أن ينعموا بنوع من الهدوء الذي يأتي بعد فقدان الأمل والشعور بالقنوط. إن الحوائل والسدود التي تغلق الطريق تُفقد الأمل، وتخمد شعلة التوقع، هذا بالطبع إذا أقروا بوجود الحوائل والسدود. أما إذا تجاهل البعض وجود هذه الحوائل والسدود، فهم وحدهم الذين يجلبون اللوْم على أنفسهم. واليهود مثلا.. الذين لا يزالون ينتظرون قدوم المسيح، لم يعوا بعد هذه الحقيقة البسيطة، رغم أنهم يتصفون بالذكاء، ولم يعد لديهم سوى أن يبكوا وينوحوا بجوار حائط من حجر، متوسلين لكي يأتي المسيح الذي لا يمكن أن يأتي وفق تصوراتهم.

ولكن اليهود ليسوا وحدهم ضحية هذا التناقض متأرجحين بين الذكاء والغباء، إذ لا تختلف عنهم كثيرا حالة جميع الأديان الأخرى التي ينتظر كل منها منقذا مختلفا. قد يختلف الممثلون الذين يؤدون الأدوار،

وقد تختلف أشكالهم وملابسهم، ولكن الدراما التي يؤدونها هي واحدة في جميع الأحوال. فاليهود كانوا ينتظرون مقدم مسيح كان من المحتم أن يأتي منقذا لهم، وقد جاء بالفعل، ولكنه لم يكن نفس المسيح الذي كانوا يتوقعونه في مخيّلتهم، ولذلك لم يعرفوه. لقد كانوا ينتظرون أن يأتي إليهم مسيح يضع تاجا على رأسه، ويتوقعونه ملكا جالسا على عرش الْمُلك. كانوا يعتقدون أنه سيكون مسيحا محاربا.. يقود جيوش الإسرائيليين لمجابهة الحكم المتسلط للإمبراطورية الرومانية ويحقق الظفر والفلاح. وها قد مرَّ ألفان من السنين منذ أن رفضوا قبول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ولم يأتهم بعد ذلك المسيح الذي كانوا يتوقعونه في مخيلتهم. وها قد غيّر التاريخ الجغرافيا السياسية في العالم، وفقدت نبوءة مجيء المسيح معناها كله. فلم تعد فلسطين واليهودية تحت إصر حكم دولة رومانية يريد الشعب اليهودي أن يتحرر منه. لقد اختفت تماما من خريطة العالم هذه الإمبراطورية الرومانية التي حكمت في يوم من الأيام نصف العالم المعروف في ذلك الزمن، ولكننا لا نزال نسمع صرخات الإنقاذ في فلسطين، ولكنها صرخات الإنقاذ من اليهود وليست لإنقاذ اليهود.

ورغم أنه ليس هناك من خطأ في اعتقادهم بأن المسيح سوف يولد كما يولد أي إنسان آخر من رحم امرأة، إلا أنهم ربطوا مولده ببعض الظواهر غير الطبيعية التي كان من المستحيل أن تتحقق. وقد كان اعتقادهم بالنّزول الجسدي للنبي إلياس من السماء هو حجر العثرة الذي سد الطريق أمام مسيحهم المنتظر. وهكذا تحوّل موقف اليهود تجاه مجيء المسيح إلى إنكار تام لمجيئه بناء على ما ربطوه به.

وحين نتحوّل بأنظارنا من اليهود إلى النصارى، فإننا لا نرى موقفا يختلف كثيرا عن الموقف الذي ذكرناه فيما سبق. ولنتصور مثلا أن المسيح قد عاد في زيارة ثانية إلى الأرض، مصحوبا بذلك الهيلمان العظيم الذي يتصوره المسيحيون الذين لا يزالون ينتظرون التحقق الحرفي لنبوءات عودته.

إن فكـــرة نزول ابن الله من السماء في مجد عظيم، وفي شكل إنسان، هي فكـــرة تصلح فقط لقصص الخيال، ومع ذلك فهي تُستخدم لإبقاء الأمل حيا، أو لعلنا نقول إنها تُستغل لإبقاء الإيمان المسيحي حيا. وحينما ننظر إلى هـــذه الفكرة من زاوية عقلانية تختلف مع النظرة المسيحية، فإن سخافتها ومنافاتها للعقل يصبح أكثر وضوحا وأشد جلاء. ولا يوجد إنسان من غير المسيحيين، سواء كان متدينا أم غير متدين، يمكن أن يشارك المسيحيين هذا الاعـــتقاد، لأنه يتحدث عن تزاوج خيالي مُفرط بين المادة والروح. ومع ذلـــك فإن المسيحيين لا يرون في هذه الفكرة أي عنصر من عناصر الخرافة غير العقلانية، فإن الاعتقاد الراسخ بهذه الفكرة قد أعماهم تماما.

والغريب أن نفس هذا المسلك الشاذ لليهود والنصارى يتفق تماما مع مســـلك أتـــباع الأديان الأخرى الذين تتناقض أيضا توقعاتهم مع الحقيقة وتتـــنافر مع الواقع. إن مسحة بسيطة من غير المعقول في عقائد الآخرين تـــزعج الـــيهود والنصارى، وتثير استنكارهم لما يعتبرونه منافيا للحقيقة، ولكن أعينهم تعمى تماما عن رؤية الأخطاء الفاحشة التي تلطِّخ عقائدهم هم، مهما كانت منافية للطبيعة ومخالفة للعقل. إنهم يرون القشة في عيون الآخـــرين، ولكنهم لا يرون الخشبة التي في أعينهم، خاصة لو أنهم نظروا إلى أنفسهم من خلال عيون الآخرين. إن النظرة العقلانية هي وحدها التي تســـاعد كـــل الأطراف على تبين أن العودة الحرفية في زيارة أخرى إلى الأرض.. لأي نـــبي من الأنبياء، أو ما يسمى بإله أو ابن الله.. هو أمر لا يـــتفق مع العقل. فإن مثل هذه الزيارة لم تحدث قط في أي زمن مضى أو في أي مكـــان على ظهر هذه الأرض خلال عمر البشرية بأكملها، وهي لن تحدث في المستقبل أبدا. و لم يحدث بتاتا أن نزل أي نبي من الأنبياء من السماء بالمعنى الحرفي، وإنما كان الأنبياء يأتون إلى العالم عن طريق أرحام النساء، ويولدون ويعيشون في الدنيا كما يعيش بقية البشر. وكانوا دائما يـــبدأون حركة للإصلاح يتحتم عليها أن تخوض صراعا مريرا من أجل

البقاء والانتصار على جميع العقبات. هذا هو الواقع، وأي معتقد لا يتواءم مع هذا الواقع فإنه لا ينتمي إلا إلى عالم الوهم والخيال. لذلك فلا بد من رفض جميع وعود الإصلاح وإحياء الدين التي تقوم على هذا الأساس الذي يتنافى مع العقل، فلم يحدث مطلقا أن استخدم الله تعالى هذا الأسلوب.

وإذا انتقلنا بأنظارنا إلى العالم الإسلامي.. نجد أن الفكرة الشائعة عن إحياء الدين لدى المسلمين قد تبدو مختلفة عن الخط العام الذي تنتهجه الأديان الأخرى، ولكن عند فحصها عن كثب يمكن للمرء أن يرى أنها عمليا لا تختلف كثيرا عن موقف الأديان الأخرى، فيما عدا سياق الأحداث. فبادئ ذي بدء.. يقول المسلمون إن رسول الله ﷺ هو آخر الأنبياء على الإطلاق، وهم اليوم يفهمون تعبير "خاتم النبيين" على أنه يعني انقطاع مجيء الأنبياء بجميع فئاتهم. ورغم هذا.. فهم أيضا ينتظرون نزول عيسى بن مريم من السماء. أفلا تتناقض فكرة مجيء نبي مع فكرة كون محمد ﷺ هو آخر الأنبياء على الإطلاق؟ هذا هو السؤال الذي تتعين إجابته. وعند الرد على هذا الموقف المتناقض نراهم يقولون إنه بالرغم من استحالة بعثة نبي جديد، فإن نبيا قديما يمكن أن يعود مرة أخرى لتحقيق المقتضيات المستجدة التي استدعت حضوره. ويبدو أنهم قد نجحوا بهذه الاستراتيجية في إبقاء باب النبوة مغلقا وموصدا بالمزلاج، بينما يحاولون بمناورة ماكرة إدخال المسيح عليه السلام من الباب الخلفي. إن المسلمين المعاصرين.. سواء كانوا من أهل السنة أو من أهل الشيعة.. يتفقون على هذا التفسير لمعنى ختم النبوة. فالجميع يؤمنون بعودة المسيح عيسى بن مريم نبيا من عند الله تعالى، ومع ذلك فهم يؤمنون أيضا بالآخرية المطلقة لسيدنا محمد ﷺ.

وتبدو مشكلة التناقض المتأصل هذه في المعتقدات الشائعة بين المسلمين اليوم أكثر وضوحا وأشد جلاء.. حين يتعلق الأمر بنبوءات

مجـــيء الإمـــام المهدي. فهو لكونه إماما.. سوف يكون مأمورا من الله مباشـــرة وسيجعله للناس إماما، ولهذا يتعين على كل مسلم أن يؤمن به. وسوف نتحدث بتفصيل أكثر عن مقام الإمام المهدي، غير أنه يكفي الآن التأكيد على أن الإمام المهدي قد وُصف بكل ما يتصف به الأنبياء، رغم أنه لم يُعط لقب نبي.

أمـــا وقد أوضحنا هذا الأمر.. فالضرورة تقتضي أن نعود إلى بحث موضوع عودة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام والكيفية التي يمكن أن تتحقق بهـــا هذه العودة. وتختلف عقيدة الجماعة الإسلامية الأحمدية عن عقيدة عامـــة مســـلمي هذا العصر في الكيفية فقط، وليس في موضوع العودة. والسؤال هنا هو ما إذا كانت كيفية العودة هذه سوف تكون حقيقية أو مجازيـــة. هـــل ستتحقق هذه الكيفية بعودة نفس ذات الشخص، أم أنه ســـيكون شخصا آخر يشابه المسيح السابق؟ هل سيظهر كنبي مسيحي وقد تحوّل إلى شريعة دين الإسلام، أم أنه سيكون نبيا مسلما يحقق صورة مجازيـــة للمسيح بن مريم؟ وما هي العلاقة التي تربطه بالأديان الأخرى؟ هذه هي الأسئلة الهامة التي يجب أن يكون لها إجابات شافية.

إن موقـــف الجماعة الإسلامية الأحمدية هو الموقف العقلاني الفريد. فهـــي تقـــبل.. مـــن ناحية المبدأ.. جميع الدعوات التي تنادي بها الأديان الأخـــرى التي تقول بمجيء مصلح رباني عالمي في آخر الزمان. فمن حق الهندوس أن تُقبل دعوتهم حين يقولون بعودة كرشنا تماما كما هو من حق المسيحيين أن تُقبل دعوتهم حين يقولون بعودة المسيح عليه السلام. كذلك فإن توقعـــات الزرادشـــتيين الذين يتطلعون لعودة زرادشت، وآمال البوذيين وأتـــباع كونفوشـــيوس في ظهور كل من بوذا وكونفوشيوس على أنه المخلـــص الموعـــود.. يجـــب أن تحظى تلك الآمال والتوقعات بالاحترام الممـــاثل. غير أن الاعتراف بصدق جميع هذه الدعوات المختلفة التي تبدو أنهـــا متناقضة.. يمكن أن يكون معقولا إن لم نأخذها بحرفيتها واعتبرناها

مجازيـــة. والاستنتاج الوحيد المعقول.. الذي يمكن أن نستخلصه منها هو أن ذلـــك المصلح الموعود.. لا بد وأن يكون شخصا واحدا، يمثل مجيء جمـــيع هؤلاء الذين تذكرهم النبوءات، وإلا.. فإنه من المستحيل التحقق الحـــرفي لجمـــيع هذه النبوءات بسبب الهالات الخرافية المحيطة بكل منها. وهـــذا ما قدمه مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام، وقد ذكر هذا الرأي لشعوب العالم بمنطق لا جدال فيه. فإن مجيء كل هؤلاء المصلحين في وقـــت واحد، لا يمكن أن يكون بشكل مادي وحرفي، وإنما يمكن أن يكـــون فقط بشكل مجازي. وبنفس المفهوم.. أعلن أنه حقق في شخصه هـــذا الشكل المجازي الذي يمثل مجيء المسيح والمهدي كشخص واحد، وأنـــه في شخصـــه يتحقق أيضا مجيء الآخرين مثل بوذا وكرشنا، وكل المصلحين الآخرين الذين يُنتظر مجيئهم في أي مكان في العالم.

وإذا تركنا جانبا التأثير الذي خلقته هذه الدعوة بين الآخرين.. سواء بالقـــبول أو بالـــرفض، فإننا نبدأ بدراسة الأثر المدوّي الذي خلقته بين أوســـاط الأصوليين من المسلمين، وهؤلاء لا يهتمون بتاتا بعودة بوذا أو كرشنا أو غيرهم لأنهم لا يؤمنون بهم أصلا، ولكنهم يهتمون اهتماما بالغا بالمســـيح عليه السلام، رغم أنه كان نبيا مرسلا إلى بني إسرائيل وحدهم. وفي رأيهم، أن قول أحد بأنه يمثل مجيء المسيح عيسى بن مريم عليه السلام هو قول أبعـــد مـــن أن يهضم أو يحتمل، ويزيد الأمر بشاعة لديهم أن يقال عن المسيح الذي يحلمون به إنه قد مات ولن يعود مرة أخرى، والقول بمجيء إنسان يماثله من بين المسلمين هو أمر يصيبهم بالاشمئزاز الشديد وبالغثيان.

ولا يغيبن عن البال أنه قبل أن يعلن مرزا غلام أحمد عليه السلام عن دعواه بأنـــه مثيل المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.. كانت شهرته وصيته قد طبقت آفـــاق الهـــند لما أثاره كتابه العظيم "البراهين الأحمدية" من إعجاب بين المسلمين. وقد أثنى المولوي محمد حسين البطالوي.. أحد علماء فرقة أهل الحديث.. على الكتاب ثناء بالغا، فقال عن المؤلف إنه أعظم مَن دافع عن

الإسلام منذ وفاة الرسول ﷺ[1]. ومع ذلك.. ورغم هذه الشهرة الواسعة، فإنه بمجرد إعلان رأيه بوفاة المسيح الذي كان رسولا إلى بني إسرائيل، بدلا من أن يؤيد فكرة حياته في السماء التي كانت شائعة بين الناس في ذلك الوقت، إذ بموقف الناس تجاهه يتحوّل تحوّلا جذريا، ونفس أولئك العلماء الذين كانوا يكيلون له المديح، ويغرقونه بقصائد الثناء، غيروا موقفهم منه تغييرا كاملا. فمن يكون هو بالمقارنة مع مولاهم المسيح المنتظر الذي يعتبرونه المخلص الموعود للعالم أجمع؟ وهكذا.. وبين عشية وضحاها.. انهارت شهرته إلى الحضيض، وتهاوت من ذراها الشاهقة في أعالي السماء. وكان الناس يريدون لصورة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام أن تظل في السماء كما كانت في مخيلاتهم. وأما هذا الذي يدّعي أنه جاء مثيلا له، فلا جزاء له عندهم سوى القتل والإعدام. وهكذا كان الهيجان الشديد الذي أثارته دعوة مرزا غلام أحمد أمرا لم يُر له مثيل في التاريخ الديني للهند. وانطلق فجأة إعصار من الغضب الجارف، وانفجر بركان من الحقد العارم، راح يلقي بحمم من الشتم والسب وفتاوى التكفير. وبذلك انطفأ النجم اللامع الذي كان يتلألأ في سماء القيادة الإسلامية في الهند، وتحوّل الرجل الذي كان محط إعجاب الناس ليكون محط سخط الجماهير، إلى الحد الذي لم يعد فيه يستحق أن يُعتبر حتى واحدا من المسلمين العاديين. غير أن كل هذا لم يفتّ في عضده شيئا، ولم يؤثر في خلية واحدة من جسده، فلم يكن هناك من أمر يمكن أن يحول بينه وبين القيام بالمهمة الربانية التي كلفه الله تعالى بها.

ولم يتأخر المسيحيون أيضا كثيرا في موقفهم العدواني تجاهه، فلم يتركوا دربا إلا سلكوه، ولا بابا إلا ولجوه، من أجل تدميره والقضاء على دعوته، حتى إنهم اختلقوا له تهما كاذبة راحوا يلاحقونه بها في المحاكم البريطانية في الهند. ولكنه ظل على هدوئه وثباته وصلابته، لا تحركه عن قصده الزلازل، ولا تثنيه عن عزمه النوازل.

وبعد ذلك، وكأن دعوته بكونه مثيلا للمسيح عيسى بن مريم عليه السلام وما أثارته ضده من سخط المسلمين والمسيحيين على السواء لم تكن كافية، فإذا به يعلن أيضا أنه مثيل لكرشنا.. نبي الهند العظيم.. الذي اتخذه أتباعه إلها يعبدونه من دون الله باعتبار أن الله قد حل فيه. وكذلك فقد أثار سخط الهندوس.. وخاصة طائفة الآريا سماج.. أكثر طوائف الهندوس تعصبا وأشدها غلظة وترويعا.. بقيامه بهجوم مضاد لصد هجماتهم الفاحشة والضارية ضد الإسلام وضد رسول الرحمة ﷺ. كذلك فقد دعا زعماء طائفتهم إلى مناظرات ومباحثات في أمور عقائدهم، مما كان له أثر مدمّر على من قَبِل منهم تحديه. وباختصار، فقد أعلن أن جميع النبوءات الموجودة في كل دين، والمتعلقة بمجيء مصلحين ربانيين في آخر الزمان، إنما تتعلق كلها بمجيء شخص واحد فقط. وبغض النظر عن الأسماء والألقاب المختلفة المذكورة في الديانات المختلفة والصحف المقدسة، فإن كل ما يهم هو أن ذلك المصلح الموعود.. أيّا كان.. هو مبعوث من لدن الله تعالى إلى العالم أجمع في آخر الزمان. وأما أولئك الذين كانوا أسارى التعصب وضحايا الفهم المنغلق، فلم يكن له أي شأن بينهم، ولا كانت دعوته تمثل أية أهمية بالنسبة لهم. وكان هؤلاء هم الذين رفضوه رفضا قاطعا، وعادوه عداء سافرا. لقد كذبوه كما كذب الناس عباد الله المرسلين من قبله، ولكن الله تعالى كان يؤيده بكل تأكيد كما أيد دائما جميع عباده المرسلين من قبل.

إنه من العجيب حقا كيف ينسى الناس دائما أن الله ﷻ يعامل أنبياءه جميعا بنفس المعاملة، والأنبياء أيضا بدورهم ينصاعون لأوامره انصياعا كاملا. وبالمثل كانت الطاعة الكاملة لهذا المصلح العالمي الموعود هي لله تعالى وحده، وليست لأي من تلك الفرق الدينية التي تنتظره وتتوقع أن يؤيد عقائدها المنحرفة. فهو مبعوث يأتي من لدن الله تعالى ونائبا له سبحانه، وليس لأولئك الذين تخلوا عنه ﷻ وخذلوه. وهو ينتمي

إلى جميع عباد الله الصالحين، وليس لأولئك الذين جعلوا من أنفسهم سادة على عباد الله الصالحين.

إن وحدانية الله تبارك وتعالى وإرسال الأنبياء بين الناس هما الأساسان المشتركان بين جميع الأديان. قد تختلف الأسماء وتتباين الألقاب، ولكن هذه كلها غير ذات قيمة، فإن ما يهم هو أن يكون صاحب الدعوى مبعوثا من عند الله تعالى. و لم يدّع مرزا غلام أحمد عليه السلام أبدا أنه صار أشخاصا عدة ذوي أسماء وألقاب مختلفة.. انصهروا جميعا في شخصية واحدة.. غير أن معظم رجال الدين يختلقون مفهوما زائفا في هذا الشأن، ويثيرون به حنق الجماهير الجاهلة ليسخروا منه ويهزءوا به، قائلين لهم إنه يدّعي بأنه كل هؤلاء الأنبياء الموعودين وقد تجسّدوا واجتمعوا في شخصه، الأمر الذي أصاب جماهير الناس بصدمة عنيفة، فكيف يمكن للمهدي وللمسيح ولكرشنا ولبوذا أن يكونوا جميعا فردا واحدا؟ وهكذا راح البعض يهتف في ازدراء: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون! وأعادت المعاملة التي استقبلوه بها إلى الأذهان نفس المعاملة التي استقبل الناس بها رسول الإسلام ﷺ حين أعلن دعواه بوحدانية لله لا مداهنة فيها. لقد قام كهنة عُبّاد الأصنام بقصد خبيث بالعمل على تشويه دعوته في أذهان الناس، فراحوا يُقنعون الناس بأنه يدّعي أنه أدمج آلهتهم كلها في إله واحد هو الله تعالى. يقول الكتاب الكريم:

﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾(٣٨ ص:٦)

وليس من الصعب للباحث غير المتعصب أن يرى حكمة مرزا غلام أحمد عليه السلام خلال جميع مباحثاته مع معارضيه، إذ كان موقفه دائما موقف الإنسان العقلاني والمنطقي. وإن لم يكن الأمر كذلك لكان من السهل إثبات خطئه في أغلب معتقداته ومناظراته باستعمال نفس الآلية العقلانية.

ولو كان غير مصيب في رأيه بأن المقصود من النبوءات الموجودة في

كـــل الأديـــان عن مجيء مصلح رباني في آخر الزمان.. هو مجيء شخص واحـــد فقط من عند الله تعالى، لكان هذا يعني أنه ينبغي أن يظهر في كل ديـــن مصلح خاص، يحمل اسما مختلفا، ولقبا مختلفا، ومذهبا وأيديولوجية مخـــتلفة. وهذا يفتح مجالا واسعا من الدعوات والدعوات المضادة، ويفتح الأبواب للكثير من الخصومات والمنازعات، وإذا انفتحت هذه الأبواب فإنه يكون من المستحيل أن تُغلق بعد ذلك أبدا. إن كل من هؤلاء سوف يعلن أنـــه هو وحده الممثل الشرعي الوحيد لصوت السماء، وكل منهم سوف يدعـــو العالم بأجمعه للإيمان به باعتباره الأمل الوحيد المنوط به نجاة الناس، وســـوف يعتـــبر كـــل منهم أن الآخرين ليسوا سوى أدعياء كذبة. ومن الواضح أن فساد هذا السيناريو المجنون لا يحتاج لأي تعليق. إن كل إنسان به ذرة من عقل أو منطق لا يمكن أن يؤمن بإله يعمل على تفريق الناس إلى مئات من الفرق المتنافرة والمذاهب المتناحرة، وإنه من الجنون حقا أن تُنسب هذه التفرقة إلى الله، أو أن تتم باسمه وبسلطانه.

فـــأي إله هذا الذي يجعل يسوع المسيح ينْزل من السماء في صفوف المسيحيين ليبدأ غزوا عالميا باسم الثالوث: الإله الأب، والإله الابن، والإله الـــروح القدس؟ وما إنْ يتم تحقيق ذلك يسرع باستنساخ نفسه ويتحوّل إلى الـــرب كرشنا في شبه القارة الهندية، مؤكدا على أهل الهند أنه ليس واحدا وليس اثنين وليس ثلاثة، بل هو إله متعدّد الوجود، من الصعب أن تُحصى أشخاصه أو تجلياته. ويمكن عبادته باعتبار أنه أشجار، أو حيّات، أو عقـــارب، أو أفـــيال، أو عواصف رعدية تصُمّ الآذان. كذلك يمكن عـــبادته على أنه القمر الذي يبزغ أثناء صمت الليل الطويل، وهو أيضا الشـــمس التي تنير النهار الجميل، وهو ما لا يمكن حصره من نجوم تُزين أديم السماء. أما على الأرض فمن السهل معرفته في شكل الأبقار والقرود والدبـــبة والضباع والنمور والخيول والحمير وما لا حصر له من أشكال الحيوانات التي تسكن في البحر والأرض والهواء. كذلك يمكن عبادته على

أنـــه الأشـــباح والأشكال الشبحيّة التي يتصوّرها الإنسان. وعلى ذلك فسوف يصيح مناديا الجميع: هيا أسرعوا إليّ واعبدونا!

وقـــبل أن يضـــيع صوته في خضم الترنيمات المتصاعدة: سمعا لك يا مولانا كرشنا، هاري راما.. هاري راما.. إننا سوف نعبدكم جميعا، فإن صوتا آخر سوف يبدأ في الانطلاق، ويعلو ويرتفع في تصاعد مستمر على أنه صوت بوذا. وسوف يرفض رفضا باتا جميع أشكال الوحي الإلهي التي ادّعاهـــا الـــرب كرشنا، بل إنه سوف يسخر من فكرة وجود إله على الإطلاق. وسوف ينادي بأعلى صوته ويقول: هأنذا بوذا، وأنا لست إلها، ولـــيس هناك من إله غيري، فأنا لست سوى اكتمال الحكمة الإنسانية، وهـــذا هـــو كل ما عليكم أن تعرفوه على الأرض. فلننكر جميع الآلهة، ونحتفل بخلاصنا من ربقة الأساطير الإنسانية. لقد جئت لأحرركم من الله كمـــا كنت أفعل دائما بعد كل ألفية من السنين، وليس هناك سواي من يستطيع أن يهديكم كما أهديكم أنا إلى الحق.

وقـــبل أن يخمـــد صوته وينتهي إلى سكون شامل ينْزوي على أثره إلى أعماقه الخاوية وتأملاته في لا شيء أزلي، إذا بصوت آخر يأخذ في الارتفاع من بلد مجاور في إيران، وهو صوت أهورا مازدا، إله النور الذي يتحدث من خـــلال شـــفتي زرادشـــت، وسوف ينادي قائلا: إن الصوت الذي كنتم تســـمعونه يا أهالي الهند والتبت والصين كان هو صوت أهرمان إله الظلام، فهـــو الإلـــه الوحيد الموجود سواي، ومن المحتم أن يكون ذلك الصوت هو صوته، فليس في الكون آلهة سواي أنا وهو، فأنصتوا جيدا يا بني آدم: إن الله لـــيس إلها واحدا ولا هو ثلاثة ولا أربعة ولا خمسة. ومن الحماقة أن تؤمنوا بعـــدد غير محدود من الآلهة، فإننا لسنا إلها واحدا ولا آلهة متعددة، إننا لسنا ســـوى إلهـــين اثنين فقط، أما الباقون فهم مجرد خيال لا حقيقة، وها أنذا موجود.. أنا إله الخير، وهو إله الشر، وهو الذي كنتم تسمعون صوته مدعيا أنـــه بوذا. إنه إله الظلام بينما أنا إله النور. إنه ينكرني دائما ويرفضني دوْما

ويحـــاول أن يصـــرف عبادي عن عبادتي. إنه يقول للإنسانية كلها إنه ليس هـــناك مـــن إله يستحق العبادة سوى الإنسان نفسه. إنه يسكن في مكمن الذات الأنانية في النفس الإنسانية، وباسم هذه الأنانية ينال كل تبجيل وثناء يقـــدّم في محراب الأنانية. ومع ذلك فلا بد من أن أعترف بأنه إله حقيقي، معتم ومظلم كما يكون الليل الأسود حالك الظلام، وعليكم أن تتحملوه، ولكن كونوا على حذر منه واعبدوني أنا وحدي.

وفي غمـــرة الصخب الذي خلقته الفرق المتناحرة التي ذكرناها، إذا بالعالم الإسلامي يتحرك هو الآخر في نشاط شامل مع مجيء الإمام المهدي الـــذي يأتي شاهرا سيفه، إذا كان هو بالفعل ذلك الإمام الدموي الذي يؤمـــن بـــه الكثير من رجال الدين المسلمين. وسوف يطلق صيحة بنداء إعـــلان الجهـــاد المقـــدس لقتال غير المسلمين من الناس، والقضاء على الحكومات غير المسلمة في العالم.

وخلال هذه النوْبات العاتية من الجنون الديني.. يصير الدين نفسه هو المســـتهدف النهائي والضحية الكبرى. ولا شك أن العقلانية سوف تقفز وتطـــير محلقة بعيدا عن ساحة هذه الحماقة.. وهي تبتهل إلى الله تعالى أن ينقذ الدين من أيدي هؤلاء الذين يريدون أن ينقذوه ويصلحوه بزعمهم. وبغير أن يتخذ الله ﷻ وسائل عاجلة لمعالجة الأمر، فإن الجميع.. هندوسًا ومســـيحيين، بوذيين وزرادشتيين، يهودًا ومسلمين.. سوف يعانون من النّزاع والخلاف أشد المعاناة.

إن أي إنســـان به شيء من العقل لا يمكن أن يؤيد مثل هذه الحماقات غـــير المنطقية، أو يدافع عن هذه المفاهيم غير العقلانية، فضلا عن أن ينسبها إلى تدبـــير الله تعالى. وبالتالي فلا يمكن فهم النبوءات المتعلقة بالأمور الدينية بطـــريقة حرفية، وإنما يجب أن يكون للعقل والمنطق دور هام وجوهري في فهمهـــا وتفســـيرها. إن العصر الذهبي لتوحيد الإنسانية كلها لا يمكن أن يـــتحقق إلا إذا ظهر مصلح واحد، يكون مبعوثا من لدن الله تعالى، في دين

واحـــد يختاره سبحانه بنفسه. هذا هو الحل العقلاني الوحيد لجميع المشاكل التي تواجه أديان العالم في الزمن الأخير. غير أن الناس الذين كانوا في انتظار حـــل لضـــمان بقائهم واستمرارهم قد رفضوا هذا الحل، وظلوا يتمسكون بـــآرائهم الخاويـــة وتصـــوراتهم الخيالـــية لبزوغ عصر ذهبي.. لا يبدو إلا كالسراب.

إن المشـــهد الذي قدمناه فيما سبق هو محاولة أمينة لشرح الأوضاع المتناقضـــة في كل دين من الأديان فيما يتعلق بالدور الذي يؤديه كل دين لتحقـــيق الهداية الشاملة للإنسان. إنهم يفتحون أبواب الأمل، ثم يغلقونها بأنفسهم مرة أخرى.

أمـــا المسلمون.. فهم ينهجون نهجا عكسيا، إذ أنهم يبدأون بإغلاق أبواب الأمل، وذلك بإعلان النهاية المطلقة لجميع أشكال النبوة بعد رسول الله، ومـــا أن ينتهوا من ذلك حتى يقوموا بفتح تلك الأبواب مرة أخرى، غير أن موقفهم يظل في واقع الأمر كما هو دون تغيير. وبالتالي فإن الدراما التي تقع أحداثها على المسرح الإسلامي لا تختلف كثيرا عن تلك التي تقع أحداثهـــا عـــلى مسارح الأديان الأخرى في العالم. وبالرغم من إعلانهم الآخرية المطلقة للنبي ﷺ وانتهاء جميع أشكال وأنواع النبوة بشكل لا يقبل أية حلول وسطية، إلا أنهم يتمسكون بشدة وشغف بشخص المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، إذ أنهم يدّعون بأنه سوف يأتي حتما بعد الرسول ﷺ، غير أن الأسلوب الذي يحدّدونه لمجيئه يجعل من مجيئه أمرا مستحيلا، وعلى ذلك يظل موقفهم من الناحية العملية على ما هو عليه دون تغيير.

منطق انتهاء النبوة

إن آخـــرية أي نـــبي يمكن أن تتحقق من زاوية الرسالة التي يحملها، وأيضا من زاوية مكانته ودرجته ومقامه. ومن الممكن أن يكون نبي ما هو الأخير من حيث الرسالة، ويكون أيضا الأخير من حيث مقامه ومكانته. ومـــع ذلـــك فإنه من الممكن أن يأتي نبي يكون أقل منه مكانة وأدنى منه

مقاما، ويكون مواليا لـــه وتابعا لرسالته، بغير أن يتناقض هذا مع آخريته. وهذا النوع من النبوة هو الذي نريد الآن أن نبحثه بشيء من التفصيل.

إن الإيمـــان بآخـــرية الشريعة الإسلامية كما نصّ عليها القرآن المجيد وآخرية الرسول ﷺ الذي تلقى هذه الشريعة من الله تعالى.. هو من الأمور التي تُجمع عليها الأمة الإسلامية بأسرها. فالقرآن المجيد، الذي هو في ذاته شريعة كاملة تامة، يعلن أيضا أنه تحت الحفاظة الإلهية المستمرة، التي تحمي نصوصـــه مـــن العبث الإنساني.. سواء كان ذلك بالإضافة أو بالحذف. ومادامت هذه الدعوى صحيحة وصادقة، كما يؤمن بذلك جميع المسلمين ويؤكدون على صحتها وحقيقتها، فلا بد من اعتبار حامل هذا الكتاب.. أي الـــنبي الـــذي أتى بهذه الشريعة من لدن الله تعالى.. هو آخر نبي يأتي بشريعة من وحي الله. هذا أمر واضح تمام الوضوح، ويلقى تأييدا من جميع المسلمين قاطبة، لم يشذّ عنه أحد منهم ما دام مسلما، رغم أنه قد يبدو من العسير من وجهة نظر غير المسلمين فهمُ كيفية أن يقوم كتاب واحد بتلبية حاجـــات جميع العصور، ويتحدّى متطلبات التغيير خلال العصور التالية. وعند إضافة دعوى القرآن بعالمية رسالته، فإن المشكلة من وجهة النظر غير الإســـلامية تتضـــاعف كثيرا. فكيف يمكن منطقيا لأي كتاب مقدس أن يُعالج.. على نحو مُرض.. جميع المشاكل العرقية المختلفة، والمشكلات المحلية الـــتي تـــبرز بـــين جمـــيع شعوب العالم على السواء؟ إن هناك أوربيين، وأمريكـــيين، وأفارقـــة، وعربًا، وإسرائيليين، وروسًا، وأنواعا عديدة من الشعوب من أصل أسيوي تنتمي إلى أعراق مختلفة وثقافات وتقاليد موروثة متباينة. كذلك تختلف تقاليدهم السياسية والاجتماعية اختلافا واسعا حتى إنه من الصعب رؤية كيف يمكن لشريعة عالمية واحدة تحتوي على مجموعة من القوانين الدينية أن تُرضي جميع هؤلاء وتلبي حاجاتهم بعدالة وتوازن.

وللإجابـــة على كل من هذين السؤالين يعلن القرآن المجيد أن تعاليمه جميعها تقوم على أساس الفطرة والطبيعة الإنسانية، وهي عامل مشترك بين

جميع أفراد الجنس البشري، لا تتغير بتغير الزمان. إن كل تعليم يقوم تماما، وبشـــكل كامل، على الفطرة الإنسانية.. هو تعليم ثابت غير قابل للتغيير. ويشير القرآن المجيد إلى هذا المبدأ حين يقول:

﴿فَـــأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَـــيْهَا ۚ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ۚ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠ الروم:٣١)

نعـــم.. إن الفطـــرة والطبيعة التي خلقها الله تعالى لا يمكن أن تتغير، وحتى الملحد لا بد لـــه أن يُقر بأن الطبيعة الإنسانية قد بقيت على حالها في جميع أنحاء العالم منذ عهود سحيقة. غير أن كتاب الشريعة نفسه الذي يخاطـــب طبـــيعة الإنسان غير المتغيرة يمكن أن يخضع للتغيير على أيدي الإنســـان، ولذلـــك فقد حرص القرآن المجيد على بيان انتفاء وجود هذا الاحـــتمال وذلـــك بالتأكـــيد على وجود الحماية والحفاظة الربانية لهذا الكتاب. يقول تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١٥الحجر:١٠)

وقد أثبت التاريخ أن هذه الدعوى حقيقة صحيحة واقعة. فلا بد من الإقـــرار بأن الرسول ﷺ الذي جاء بهذه الشريعة هو حتمًا آخر نبي يأتي بشريعة من لدن الله تعالى، وليس في هذا الإقرار أمر يتناقض مع المنطق أو يختلف مع العقلانية. ولكن حين يُقال إنه من المستحيل أيضا أن يأتي نبي غير مشرِّع أي بدون شريعة جديدة، فإن هذا يُعد تمديدا مبالغا فيه وغير مـــنطقي لمبدأ الآخرية.. والذين يقولون بهذا الرأي ويعلنون مبدأ الآخرية المطلقـــة للنـــبوة بجمـــيع أشكالها وأنواعها، هم في حقيقة الأمر يهدمون بأنفســـهم هـــذا المـــبدأ من أساسه، وتبدأ ثغرات الضعف في الظهور في الـــلحظة التي يسرعون فيها إلى استثناء عيسى عليه السلام من هذا القانون العام

المطلق الذي وضعوه لإثبات الآخرية المطلقة.

وعندما يواجَهون بهذه المعضلة نجد أنهم يصرفونها بإشارة بسيطة من أيديهم، كما لو لم تكن هناك أية معضلة على الإطلاق.

وهـــم يقولون إن عودة عيسى عليه السلام نبيا بعد الرسول ﷺ لا تتعارض مع آخريته المطلقة للأسباب التالية:

- إن عيســـى سوف يأتي كنبي من الذين سبق أن جعلهم الله أنبياء قـــبل مقدم سيدنا محمد ﷺ، وعلى ذلك فليس هناك تعارض مع آخريته، وإنمـــا يحدث التعارض إذا بُعث من بعده نبي جديد حتى ولو لم يأت هذا النبي بشريعة جديدة، ولو كان هذا النبي من أمة محمد ﷺ.
- إن نـــبوة عيسى ستكون هي نفس النبوة التي نالها عند مجيئه قبل الإسلام وليست نبوة جديدة.
- إضـــافة إلى ذلـــك.. فإنـــه عند عودته مرة أخرى سيكون تابعا للرسول ﷺ ولن يكون نبيا مستقلا.

ولهذا.. لكونه نبيا قديما، ولأنه سيكون نبيا تابعا، فهو لن ينقض ختم النبوة. ويترتب على ذلك أن مفهومهم عن الآخرية.. أو ختم النبوة.. يعني فقط إنه من غير الممكن أن يختار الله تعالى أنبياء جددا ولكنه يستطيع فقط أن يستحضر الأنبياء القدماء فحسب. وهذه سخافة لا تتفق مع العقل السليم ولا مع المنطق المتزن. فأي حكمة تلك التي يتصف بها ذلك الإله الذي يقرر الآخرية المطلقة لنبي من الأنبياء رغم علمه التام بضرورة بعث نبي بعده؟ أما أن يكون هذا النبي جديدا أو قديما فهذا أمر لا أهمية لـــه على الإطلاق، إذ أن جوهر الموضوع وأهميته يتركز في وجود الحاجة والضرورة لبعث نبي.

إن وجـــود الحاجة لبعث نبي بعد مجيء النبي الأخير هو أمر ينم على التـــناقض في ذاته. وحين يواجه العلماء هذا التناقض نجدهم دائما يلوُون الحقائق، وهم يقولون إن الحاجة إلى مجيء نبي قد تنشأ بعد أن يكون النبي

الأخير قد جاء ومضى، ومع ذلك فإن آخريته المطلقة تبقى على حالها، ما دام أحد الأنبياء القدماء هو الذي يلبي هذه الحاجة الجديدة. ومن الواضح أن أي عـــاقل يمكـــن أن يرى مدى سقم هذا المنطق المغلوط والمغشوش. فاخـــتلاق فـــرق بين نبي قديم أو جديد هو أمر ساذج، ومحاولة صبيانية لإثارة التشويش والاضطراب في الأذهان. فإذا افترضنا أن عيسى الناصري عليه السلام قد عاد إلى الظهور مرة أخرى كنبي تابع للرسول ﷺ فإنه بلا شك ســـيكون نبيا جاء من بعده. إن تلبية حاجة جديدة باستعارة نبي قديم.. أســـوأ من تلبية نفس هذه الحاجة ببعث نبي جديد يكون من أفراد الأمة الإســـلامية. وبالطـــبع إذا كـــان بعث النبي القديم لا يتعارض مع عقيدة الآخرية المطلقة للرسول ﷺ فإن بعث نبي جديد لا يتناقض أيضا معها.

الإمـــام المهـــدي

لعلـــنا الآن نستطيع أن نخرج قليلا عن موضوع عودة عيسى عليه السلام لنلقي بأنظارنا على مكانة ومقام الإمام المهدي.

فحسب بعض نبوءات الرسول ﷺ لا يبدو أن ظهور عيسى عليه السلام هو وحـــده الظهور المنتظر في آخر الزمان، فهناك الكثير من النبوءات تتحدث عن مبعوث آخر يقيمه الله تعالى تحت اسم "الإمام المهدي". وتذكر الكثير من الأحاديث الشريفة عيسى عليه السلام والإمام المهدي كما لو أنهما شخصان مختلفان، غير أن هناك استثناء واضحا من ذلك، إذ يذكر ابن ماجة.. وهو أحد كتب الصحاح ا لستة أن هذين الشخصين هما في واقع الأمر شخص واحد، وإنما يحمل لقبين مختلفين. وفي هذا الشأن يقول نص الحديث:

"... ولا المهدي إلا عيسى".[٢]

وهذا يعني بوضوح أن المهدي المنتظر قد لُقب باسم عيسى، غير أنه مـــن المعروف أن الإمام المهدي سوف يولد من بين أفراد الأمة الإسلامية حســـب الكـــثير من الأحاديث النبوية الشريفة، فكيف يكون هو نفس

عيســـى ﷺ إذا كان عيسى سوف ينْزل من السماء من بعده؟ إن هذا لا يمكـــن أن يـــتحقق إلا إذا كان اسم "عيسى" هو مجرد لقب يحمله الإمام المهـــدي بالإضـــافة إلى لقب "الإمام المهدي"، وبالتالي.. فليس هناك من شـــخص آخـــر ينْزل من السماء. أما الدور الذي يُقال إن عيسى سوف يقـــوم به، فسوف يقوم به الإمام المهدي. وعلى ذلك فإن من لُقّب باسم الـــنبي عيســـى ﷺ مجـــازا سوف يولد في الأمة الإسلامية باعتباره الإمام المهـــدي. وهـــذا يقودنا إلى تحديد المكانة الحقيقية للإمام المهدي. وكما سوف نبين في هذا السياق.. لا يمكن إلا أن يكون مقامه مقام نبي تابع لا يحمل شريعة، رغم أن أغلب العلماء المسلمين لا يعتبرونه كذلك. وأما في حالة عيسى عليه السلام فلا يجدون أية غضاضة في أن يقولوا باطمئنان إنه نبي، لما سبق ذكره من أسباب، ولكنهم لا يستطيعون أن يعترفوا بذلك في حق الإمام المهدي، خشية أن يتعارض هذا الاعتراف مع عقيدتهم عن الآخرية المطلقة.

وتختلف استراتيجيتهم اختلافا كبيرا بالنسبة للإمام المهدي، فهو بالنسبة لهـــم سوف يظل نبيا غير مُتَوج، إذ أنه سوف يتصف بجميع صفات الأنبياء فيما عدا هذا اللقب. وهذا يشابه تماما وصف مخلوق بجميع صفات الإنسان بغـــير اعتـــباره إنسانا، رغم أن اعتباره أي شيء آخر لن يغير حقيقة كونه إنســـانا. ومـــن هنا ينبغي أن يدرك العلماء أن مكانة الإمام المهدي تتحدد حســـب ما تقتضيه الصفات التي يتصف بها. ولا يمكن إنكار مكانته كنبي مـــادام يظـــل يـــؤدي مهمة النبي ويتصف بصفات النبي. فإذا كانت كل مقتضـــيات النـــبوّة متوفرة في شخص ما، فإنه يكون نبيا، ويظل نبيا، مهما أطلـــق الـــناس عليه من أسماء. ويكون إنكاره مع كونه مبعوثا من الله تعالى بمثابة إنكار الله عز وعلا. وعلى هذا من يرفض الإيمان بالإمام المهدي باعتبار أنـــه نـــبي تـــابع.. سوف يفقد الحق في أن يعتبر نفسه ضمن زمرة المؤمنين الصـــادقين. إن الإيمان به فرض واجب على كل مسلم، كما يعترف بذلك

حـــتى الأصوليون. وهو بذلك يشترك مع بقية الأنبياء في ضرورة الإيمان بهم جمـــيعا، ولا يشترك أحد آخر مع الأنبياء في هذا الأمر. والإصرار على عدم الاعـــتراف بمكانة الإمام المهدي لا تحرمه بتاتا من هذا الحق، كما لن يقلل عدم الاعتراف هذا من التناقض السافر في معتقداتهم.

الوحي والأنبياء الذين لا يحملون شريعة

إن مقـــام النـــبوة في الإســـلام هو أعلى مقام يمكن أن يهبه الله تعالى للإنسان. وليس النبي هو الشخص الذي يخبر ببعض النبوءات، وإنما النبي هو الـــذي يكلفـــه الله تعـــالى بهذه المهمة بشكل خاص. وليس كل المجددين بالضرورة هم من الأنبياء، ولكن جميع الأنبياء هم بالضرورة مجددون. وتلقّي الوحـــي في ذاتـــه لا يجعل الإنسان نبيا، إذ من الممكن أن يتلقى الوحي غير الأنبياء، فينعم الله تعالى عليهم بوصاله والاتصال به.

وللوحـــي مجـــال واسع من الأشكال التي يتم بها، من بينها الأحلام والرؤى والإلهامات وحتى المحادثات الكلامية. ولا ينكر العلماء وقوع هذه الظاهـــرة، حتى علماء العصور الوسطى، وإنما يقع الاختلاف فيما يتعلق بإمكـــان حدوث وحي النبوة. وهذا الجانب من الوحي هو الذي سنقوم ببحثه.

إن المرء يستطيع أن يفهم بسهولة حكمة انقطاع بعثة الأنبياء بشريعة جديـــدة، في ضـــوء ما سبق شرحه من اكتمال التشريع في القرآن المجيد. والموضوع الذي يجب أن يتم بحثه بالتفصيل هو: لماذا يتوقف أيضا الوحي الـــذي لا يحمـــل تشريعا، ولماذا يجب أن ينتهي أيضا مقام النبوة بأكمله وبصـــورة فجائية؟ إن تاريخ الأديان يثبت بما لا يدع مجالا للشك أنه ليس مـــن المحتم لكل نبي أن يأتي بشريعة جديدة من الله تعالى. فهناك الكثير من الأنبـــياء، مثل إسحاق ويعقوب ويوسف ولوط، وأشعياء، الذين لم يأتوا بشـــريعة جديـــدة. ومع ذلك فقد اصطفاهم الله كما اصطفى الذين من قبلهم، وكلفهم بمهمة النبوة، وأن يكونوا قادة روحانيين لأممهم.

المـــــــراجع

1. BATALVI, MAULAWI MUHAMMAD HUSSAIN. *Ishā'at-us-Sunnah* (June/July/Aug, 1884) No. 6. Vol.7. p.169
2. *Sunan Ibn-e-Mājah.* Kitābul-Fitan. Bābo Shiddatiz-Zamān